



دور العقيدة الإسلامية في بناء الحضارة

د. علي محيي الدين المقررة داغي

أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول - قطر

تكفل القرآن الكريم والسنة النبوية بشرح العقيدة وما يحتاج إليه المسلم من العلم بعالم الغيب بأدلة وبراهين مقنعة، ثم أمر الإسلام المسلم بأن لا يخوض في عالم ما وراء الطبيعة^(الميتافيزيقيا) بل يشغل عقله وفكره بعالم المادة والطبيعة لإنتاج العمل المصالح وخدمة الإنسان وتعمير الكون في ضوء منهج الصلاح، ولذلك اهتدى المسلمون إلى المنهج التجريبي الذي أخذه الغرب فيما بعد وبنى عليه حضارته القوية.

لذلك تمتاز العقيدة الإسلامية بهذه المميزات التالية:

1- وضوح الرؤية لكل ما يحتاج إليه الإنسان.

2- الطمأنينة والسكينة والقناعة من خلال الإيمان بالقضاء والقدر.

3- فهم الأشياء على حقيقتها.

4- الصبر والمجراة والمشجاعة في مواجهة الشدائد وعدم الانهيار أمام المصائب مهما كانت كبيرة وعدم الطغيان والتجبر والتكبر^(الحديث 23) مهما أقبلت الدنيا على الإنسان كما قال تعالى: (لَيْسَ لَكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهُ تَفَرُّحٌ أَبَدٌ آتَاكَمُ) (وَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء فشكر - فكان خيرا، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيرا له، وليس ذلك لغير المؤمن).

5- الإيمان بالمساواة بين البشر وتحقيق العدل والتكافل الاجتماعي، لأن ربهم واحد فهو خلقهم، من أصل واحد، وأوجب عليهم ما يحقق العدل والخير للجميع.

التصور الشامل للكون

الكون مخلوق لله تعالى وبين القرآن بعض تفاصيل هذا الخلق حيث كان دخانا، ثم ماء، ثم كان شيئا واحداً ففتقه، فقال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (فصلت 11) (وَقَالَ تَعَالَى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَن السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لكانتا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَّعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) (الأنبياء 30).

هذه المخلوقات خلقت لغاية وهدف دون عبث (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران 191) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الأنبياء 16) (وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

(ص 27) (وقال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (المؤمنون 115).)

وقد خلق الكون على تمام الإتيقان والنظام ودقة التقدير وشدة الإحكام واهتداء كل شيء قال تعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (النمل 88))، وقال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (الطارق 5))، وقال: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا (الفرقان 2))، وقال: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (الاعلى 3))، وقوله: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه 50))،)

(النحل 30) وأن المخلوقات خلقت لنفع الإنسان قال تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا (فهذا التصور الشامل يساعد الإنسان على التعمير والإبداع والإنتاج، لأن العلم والمعرفة هما الأساس للإنسان المسلم لا يحتاج إلى أن يشغل عقله وتفكيره في عالم الغيب، لأن المعلومات حوله كافية، لذلك يسخر كل عقله وطاقاته للتعمير المادي في حين لو انشغل عقله بعالم الغيب لما استطاع أن يبذل في عالم المادة.

قانون السببية في الخلق واحترام السنن:

يقوم الخلق كله على قانون السببية فقال تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (الطور 35))، (فَأَتَّبَعَ سَبَبًا (الكهف 85))،)

، وقد أقر الإسلام هذا القانون في إطار متوازن مع الإيمان بقدرته الله تعالى وإرادته دون تعارض ولا تصادم، ولذلك فرق بين التوكل والمطلوب الذي يعني الاعتماد على الله والإيمان بقدرته، ثم الأخذ بجميع الأسباب المتاحة، وبين التوكل المنبؤ الذي يعني التكاسل وإهمال الأخذ بالأسباب وبالتالي الفشل والخسران.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع تصرفاته وحركاته وفتوحاته يعتمد على جميع الأسباب المتاحة بعد التوكل على الله تعالى حيث لم يهمل أي سبب متاح، ففي هجرته خرج بشكل اعتمد فيه على كل وسائل الإخفاء عن قريش بما لا يدع أي مجال للشك في أن الأخذ بالأسباب مطلوب حتى للأنبياء، وكذلك في غزوة بدر حتى استفاد من الشمس حيث جعلها خلفه حتى تطلع متجهة نحو عيون المشركين، وقد لبس في غزوة أحد درعين وتعويدا للأخذ بالأسباب، حيث كانت سيرته العطرة تجسيدا لهذا التوازن الرائع بين الإيمان بالله والتوكل عليه وبين الأخذ بالأسباب المشروعة المتاحة.

بل إن القرآن الكريم إضافة إلى أمره الأخذ بالأسباب وإعداد القوة ما استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه، فإنه قد جدد النسبة في البداية بواجب من المسلمين، إلى عشرة من المشركين، ثم خفف إلى واحد إلى اثنين فقال تعالى: (الأن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْهِ (الأنفال 66))،) ولم يكلف بأكثر من ذلك، مما يدل على أهمية الكثرة والعدد بجانب القوة المعنوية.

وهذه العقيدة القائمة على الأخذ بالأسباب جعلت المسلمين يبذلون كل جهودهم لتحقيق أسباب القوة والحضارة والتمكين غير معتمدين على الخيال والخرافات، وحتى الكرامات والمعجزات التي إن أتت فهي بفضل الله تعالى، فلم يدخل المسلمون على مر تاريخهم في أية معركة عسكرية أو حضارية معتمدين على المعجزات والكرامات فقط، بل اعتمدوا على الله تعالى ثم على جميع الأسباب الممكنة، ولذلك أراد الله تعالى أن يشهد صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم هزيمة عسكرية في معركة أحد، حينما خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الأمر الذي كان يتعلق أيضاً بالأخذ بالأسباب، حيث أمر الرماة أن لا ينزلوا من فوق جبل عيين، لكنهم نزلوا فحدثت المصيبة، فقال تعالى: (أَوَلَمْ أَصْابْكُمْ مِصْرِبَةً قَدْ أَصَابَتْكُمْ مِثَالُهَا قَالُوا لَنْ نَقُولَ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (آل عمران 168))،)

ومن هنا استطاع المسلمون أن يحققوا حضارة رائعة خلال أقل من قرنين شهد بتقدمها والابتكارات فيها المنصفون.

قيمة البقاء والفناء

ويعلم المؤمن أنه خالد بروحه وأعماله وإن بليت الأجساد، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه يجب عليه أن يعمل لدنيائه كأنه يعيش أبداً، ولآخرته كأنه يموت غداً، وبذلك يوازن بين دنيائه وآخرته كما أنه يؤمن بأنه لن ينفعه في الآخرة إلا الأعمال الصالحات والباقيات والمصدقات الجاريات، ولذلك لن يترك الدنيا إلا وقد ترك آثاراً طيبة تبقى بعده من العلم والعمارة لتشهد له في الدنيا والآخرة اقتداءً بإبراهيم عليه السلام قدوة الأنبياء حيث دعا ربه فقال: (وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) (الشعراء 84)، أي ذكراً حسناً، وفقني لأن أترك آثاراً نافعة طيبة يراها الناس من بعدي فيذكروني بالخير حيث بنى الكعبة المشرفة، والمسجد الأقصى فيذكره جميع المؤمنين.

نظرة الإسلام إلى الحضارات

ينظر الإسلام إلى أن الحضارات جميعها تراث إنساني فيه عناصر الخير والشر، والبناء الهدم، والمنفع والضرر، وفيه الحسنات والسيئات.

وأن الدامة الإسلامية ليست مسؤولة عما جرى لهذه الحضارات الماضية: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَكَانَ مَا كَسَبَتْمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة 134) وإنما الدامة الإسلامية مطلوبة بأن تأخذ منها ما هو صالح ونافع وتضيف إليه ما تستطيع إضافته ليكون لها دور وريادة وقدرة على البناء والتمكين.

فالمسلمون مطالبون بأن يأخذوا كل ما هو أحسن من القول والفعل والتراث والعلم، والحضارة (فالحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها) أنى وجدها).

وكرر القرآن الكريم (الحكمة) عشرين مرة، فجعل تعليم الحكمة من أهم وظائف الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة 2)، وقال تعالى: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) (البقرة 269)، وجعل تعليم الحكمة من أكبر النعم على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَلَكَ فَضْلٌ كَثِيرٌ) (النساء 113).

وأمر الله تعالى رسوله، والدعاة أن تكون دعوتهم قائمة على الحكمة فقال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالنَّهْيِ وَالرِّسْوَةِ الْوَعْدَةِ الْحَسَنَةِ) (النحل 125)، وقد ربط الله تعالى بين الحكمة وبقاء الملك وشد احكامه وقوته وتطويره فقال تعالى في حق داود عليه السلام: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) (ص 20)، بل إن الله تعالى جعل الحكيم من أسمائه وصفاته، وكرر القرآن الكريم هذا الاسم أكثر من مائة مرة.

ومن هذا المنطلق بذل المسلمون جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة في ترجمة التراث الإغريقي واليوناني والفارسي والهندي إلى اللغة العربية، حتى يحكي أن المأمون كان يوزن المخطوطة بالذهب، فيدفع في سبيلها ووزنها ذهباً، وكان الخلفاء والأمراء يتباهون بكثرة الكتب في مكتباتهم، حتى إن خزانة الكتب بمصر كانت تحوي كتب يزيد جرد (ملك الفرس) وأن مكتبة الخليفة عزيز (بمصر عام 396هـ - 996م) تحتوي على ستمائة ألف كتاب، وأن الحكم صاحب الأندلس يتكون فهرس مكتبته من أربعة وأربعين جزءاً، وأن فهرس كتب المصاحب بن عباد (ت 384 - 994م) يقع في عشرة مجلدات ضخامة، ولم يكن بها إلا أسماء الكتب فقط دون أي تعليق، ويقارن الأستاذ آدم متر هذه الكثرة بقلّة الكتب في كنائس الغرب قائلاً: (ولنذكر ما كان في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة: كانت في مكتبة الكاندرانية بمدينة كنستانتز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة

وستة وخمسون كتاباً، وفي مكتبة دير البندكتيين عام 1032م ما يزيد على المائة بقليل، وفي خزانة كتب الكاندرائية في مدينة بامبرج سنة 1130م ستة وتسعون كتاباً فقط).

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يستفيدوا من حضارات الأمم السابقة، وتأريخهم، وما تركوه، وما آلوا إليه من نتائج، ولذلك ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصصاً كثيرة للأمم والشعوب، ثم أمر المسلمين بالمعبرة ولاتعاط وأخذ الدروس والفوائد من كل ما فعلوه (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (يوسف¹¹¹)، بل أمر الله تعالى بالسير في الأرض للنظر في آثار هؤلاء الأقوام فقال تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا) (النمل⁶⁹).

هذا وقد سجل القرآن الكريم كلمات خالدة لأداس حتى ولو لم يكونوا مسلمين، أو مؤمنين بالله تعالى فسجل القرآن الكريم كلمة امرأة عزيز مصر: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالْإِسْوَاءِ إِنَّا مَرْحَمٌ رَّبِّي) (يوسف⁵³)، وقول ملكة سبأ (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (النمل³⁴).

والإسلام لا يكتفي بمجرد الأخذ وإنما بالانتقاء والتطوير بناءً على أن التوقف هو عين التأخر تنفيذاً لقوله تعالى: (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) (المدثر³⁷) ولم يقل (أو يتوقف) لأن التوقف هو عين التأخر.

بضائف إلى ذلك أن الإسلام لا يكتفي بالاحسن بل لابد من الأحسن في كل شيء، الأخذ بأحسن ما يسمع (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) (الزمر^{17، 18})، والمجدال بالأحسن (وَجَاءِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (التحل¹²⁵)، والمعمل بالأحسن (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (الملك²)، والجزاء بالأحسن (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (التحل⁹⁷)، والقول بالأحسن (وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (الاسراء⁵³)، والمدفع بالتي هي أحسن (الْفَعَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (فصلت³⁴)، ووجوب اتباع الأحسن (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) (الزمر⁵⁵)، ووجوب الأخذ بالأحسن (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا أُخْتُوًّا بِأَحْسَنِهَا) (الأعراف¹⁴⁵).

ومن المعلوم في اللغة العربية أن (أحسن) صيغة تفضيل أي أفضل أنواعه، وأن هذه الصيغة لا تعني الوقف عند حد معين، فما هو الأحسن اليوم قد لا يكون كذلك غداً، لذلك يجب متابعة الأحسن دائماً، بأن تكون هذه الأمة على أحسن حال في جميع الأمور وهذا يعني أن هذه الأمة لا ينبغي لها إلا أن تكون في مقدمة الأمم والأقوام في كل مجالات الحياة، والإنتاج والإبداع، والخدمات...

والإسلام يؤمن بسياسة التوريث بأن تقوم هذه الأمة بتوريث كل ما عندها إلى الأجيال اللاحقة، كما أنه يفرض على أتباعه أن يجعلوا العلوم بجميع أنواعها للجميع، وأن لا يمنعوه عن أحد كما ورد بذلك أحاديث كثيرة.

وفي الأخير فإن الإسلام ضد الفساد، ومع الإصلاح فحرم كل العوامل التي تؤدي إلى هدم الحضارات وأوجب الإصلاح، وهذا شعار الأنبياء (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحُ مَا اسْتَطَعْتُ) (هود⁸⁸).

دور الحضارة الإسلامية في الحضارات اللاحقة

لقد أوضح الفيلسوف المعروف جارودي دور الحضارة الإسلامية في الحضارات اللاحقة فذكر أنه عندما رحل الراهب الفرنسي (جربير) للدراسة في جامعة قرطبة قفل راجعاً وقد بلغ من العلم مبلغاً صار يتهم بأنه قد فاق الشيطان، ثم أصبح بعدئذ البابا باسم (سلفستر الثاني) وإن الحضارة الغربية تدين للعلوم الإسلامية في مجالات الطب والحساب والجبر، والبصريات، والفلسفة، والمنطق، وغيرها، فقد كانت الجامعات الأوروبية في فرنسا وبريطانيا تدرس كتب الرازي، وابن رشد، وابن الهيثم، وغيرهم في القرن السادس عشر في فرنسا، ومنتصف القرن التاسع عشر في إنجلترا.

ولم تقف استفادة الغرب من المسلمين عند الجانب النظري بل استفاد من المراسد والخرائط، واكتشاف الأرقام العربية، والصفر و المواد الكيميائية والمسدلة والصناعية ونحوها.

وفي مجال العلوم الإنسانية يتحدث جارودي عن ابن خلدون بأنه «مخترع مفهوم علمي عن التاريخ وعن علم الاجتماع، وأن هذه الشخصية لا يمكن أن تظهر من الفراغ، بل تدل على نمو الفكر الإسلامي في عصره في محال العلوم الاجتماعية».

ويذكر جارودي أن العلوم تجمدت في أوروبا، لأن الكنسية أبدت رغبة تجاه الطبيعة زاعمة أنها تبعد عن الإله، وهكذا استمرت تجارب العلوم عبر تأريخها، بينما انطلق العلم في الإسلام من مبدأ الموحداية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة وعلم الكلام والفلسفة والفنون المختلفة، وبين رسالة المسجد والمدرسة، وكانت وسمرقند، وقرطبة، معالم إشعاع ليست للعالم الإسلامي بل لأوروبا وموماليه بفرنسا على غرار كليات الطب الإسلامية.

وفي مجال الرياضيات كانت مساهمة المسلمين عظيمة في نهضة أوروبا وساعدت على تطوير الحساب والجبر، ولما أدل على ذلك من الأعداد التاليفية⁴⁴⁴) (تكتب على هذا النحو) F 1LKSSMMMM

(وكان من الصعوبة بمكان إجراء أية عملية حسابية أو جبرية مع هذه الرموز.

ولم يكن حظ علم الاجتماع أقل شأنًا من بقية العلوم، فكان لابن خلدون دور كبير في بلورة الأسس العلمية له، كما تفوق علماء المسلمين على علماء الفلك اليونانيين سواء في مجال الملاحظة أو القياسات. كما عملوا على تطوير الجغرافيا والدراسات.